الهوية، المثقف والعولمة

د. مخداني نسيمة
-جامعة الجزائر

ماهية الهوية:

تمثل الهوية الإطار أو القالب، الذي يشعر الإنسان أنه ينتمي إليه مع الآخرين من أبناء مجتمعه، أي هي أشبه : « بالرابطة القيمية و المسلكية بين أفراد المجتمع ككل أو شريحة إجتماعية معينة بحيث يرى الفرد نفسه من خلال المجتمع الذي يشاركه نفس القيم والاعتقادات والسلوك ».[1]

فالهوية ليست مجرد انتساب إلى عرق أو دين أو إلى ثقافة معينة ،حقا إن هذه العناصر تدخل جميعا في تشكيل الهوية، ولكن الهوية لا تقتصر على واحد من هذه العناصر وحدها ولا تشكل أنقوما نهائيا مطلقا متحققا سلفا، ولا يبقى إلا البحث عنه وتأكيده بالشعارات المجردة والدعاوي الماضوية الجامدة، وإنما الهوية إلى جانب مراعاة التراث في مختلف تجلياته بشكل عقلاني مستنير هي مصالح وأفق مفتوحة على المستقبل تتحقق و تتجدد بتجدد المعرفة والعلم والعمل والإنتاج والإبداع والتفاعل مع ضرورات الواقع الطبيعي والإنساني وإمكانياته المادية والمعرفية المتجددة"[2]

من هنا يجب أن نعترف بأن الهوية هي صفات وأحاسيس، ونمط حياة، هي "في كل شيء،في الملبس والمأكل والموسيقى والفن والثقافة، في الحرية والمقاومة و الصمود،ويجب أن نعترف كذلك بأنها نمط معيشي يتفاعل مع المتغيرات المحيطة به، دون أن يذوب فيه يتأصل بداخله لكنه

---

[1] عبد الله الجسمي، "الهوية و ثقافة العولمة"، العربي، عدد 560، 1 يوليو 2005، ص 100.

[2] محمود أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية و الكونية، القاهرة: دار المستقبل العربي، ط1، 1996،ص ص16-17.

يكتسب الجديد دائما ، الهوية إذن هي أحد مكونات الشخصية الوطنية، فــلا مكونات الشخصية الوطنية، لمن ليس له هوية في ظل عولمة بلا حدود".[3]

بالتالي فإن الهوية لا تقتصر على الثقافي النخبوي، بل تضم أشــكال وأساليب الحياة اليومية في إطار اشتباكها وتفاعلها مع الرصــيد المعرفــي المشترك للأفراد و مدى تأثيره على أفكــارهم وســلوكياتهم،هذه الهويــة " تتأرجح مابين الأطروحــات التــي تقــدس التــراث وتقــف علــى أعتــاب مسقطه...،وما بين القيم الوافدة التي تقــدس الاســتهلاك وتــروج للمنفعــة الشخصية والروح الفردية".[4]

كما أن الهوية هي مشروع متطور فاعل، مفتوح على المستقبل، وهي ليست من ناحية أخرى مغلقة على ذاتها مكتفية بها، وإنما ذات طابع علائقي متفاعل مع غيرها، إن تطور وتفاعل الهوية، لا يلغيها بل يغنيها، ويجعلهــا قيمة فاعلة لا قيمة جامدة راكدة .لهذا فهوية الإنسان هــي بالضــرورة فــي تجدده لا في جموده، وفي تفاعله و تفتحه لا في عزلته.

لذلك تحتاج الهوية إلى إعادة تعريف باســتمرار بمــا يتواكــب مــع المتغيرات الحادثة وبالطبع يحتاج إلى معرفة عميقــة بالتــاريخ ، وتقــدير واضح وواقعي للحاضر ، وإدراك واع ورصــين لمــا هــو مطلــوب فــي المستقبل.

لأنه لكل مرحلة مجتمعية وتاريخية هويتها المعبرة عــن مكتســباتها ومنجزاتها وممارساتها وأفكارها وعقائدها وقيمها وأعرافها الســائدة ولكــن ليست ثمة استمرارية لهوية ثابتة جامدة محددة طوال التاريخ، وإنمــا لكــل مرحلة جديدة هويتها التي هي تطور متجدد للهوية فــي المرحلــة الســابقة، أوانحدار وتدهور لها.

---

[3] أحمد مجدي حجازي "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية "،عالم الفكر،محلد 28،عدد2،أكتوبر–ديسمبر 1999،ص 129.

[4] عبد الرحمن عواطف،"كلمات إفتتاح"، في:الإعلام والثقافة والهوية في الوطن العربي، القاهرة: مركز البحوث العربية، 2003،ص 12 .

1- الهوية والعولمة:

في هذا الإطار إذن علينا أن نأخذ خصوصية العلاقة بين العولمـــة والهويـــة الثقافية، عندما يتعلق الأمر بالوطن العربي بعين الاهتمام. فالاختراق الثقـــافي الـــذي تمارسه العولمة لا يقف عند حدود تكريس الإستتباع الحضاري بوجه عام، بـــل أنه سلاح خطير يكرّس الثنائية والانشطار في الهوية الوطنية القومية لـــيس الآن فقط، بل على مدى الأجيال الصاعدة والقادمة، ذلك بالوسائل الســـمعية البصرية، المرئية وغير المرئية.

لكن في نفس السياق من الضروري التأكيد على أنّ العولمة بعيدة كل البعد عن كونها محاولة واعية ومخططة ومدبرة لفرض قيم وثقافة مجتمع ما على القيم والثقافات الأخرى في العالم، وليس الهدف منها التعدي على سائر الثقافات أو هدر السيادة الثقافية، أو ضرب الهويـــة الوطنيـــة للشـــعوب، أو طمس خصوصيتها الحضارية، فالانتمـــاءات الوطنيـــة والهويـــات الثقافيـــة والخصوصيات الحضارية كانت قائمة قبل العولمة و بعـــدها، فهـــذا الفهـــم للعولمة، كغول ووحش، يخلق مواقف سلبية ورافضة، تفتعل المعارك غيـــر الضرورية، وتضع الشعوب في مواجهات حضارية وسياسية غير مفيدة.

إن الثقافة العالمية تتحدى الهوية المحليـــة والضـــعيفة بطبيعتهـــا ولا تترك الوقت الكافي للتهيؤ النفسي لهذا التغييـــر الكبيـــر. ويصـــاحب هـــذه المرحلة الانتقالية المؤلمة قلق من مستقبل مجهول، ثم هناك الصراع الدامي أو السلمي كآلية دفاع طبيعية للحفاظ على الوضع الراهن.

ينكمش العالم اليوم نتيجة انفتاح أحد أجزائه الواحد علـــى الآخـــر أو تقارب أطرافه أكثر من أي فترة مضت في تاريخ الإنسان. و قـــد أدى هـــذا الأمر : « إلى بروز ظاهرة يطلق عليها "الثقافة العالمية". وبدأت تظهـــر، كرد فعل طبيعي لهذه التطورات، مشكلة البحث عـــن الهويـــة الجماعيـــة أو الصورة القومية المصغرة بشكلها الجديد لمجموعات متناحرة، كانت تعـــيش في وئام تام ».[5]

---

[5] نجاح كاظم، العرب و عصر العولمة، بيروت : توزيع المركز الثقافي العربي، ط1، 2002، ص ص 158-159.

يعتبر السياسيون الغربيون أن محاولة نشر العولمة الثقافيـــة واجـــب إنساني لإخراج العالم من تخلفه، وأنه يأتي عن طريـــق الإقنـــاع بالصـــورة والانتشار المتعدد و المتكرر في وسائل الإعلام المختلفة، «مما ينفي صـــفة الإجبار و يجعل الفرد يتعرض لإعادة تشكيل مجموعة القيم التي يؤمن بهـــا من خلال الانبهار و الإعجاب بما يراه من صنوف الحياة التي تعكسُ قيمًا وثقافـــات معينة، ليصل إلى الاعتقاد بأن هذه القيم (الجديدة) هي التي تؤدي إلى هذا النمط مـــن الحياة الذي أعجب به ».[6]

على الرغم من أن العولمة منحتنا حق الشك في كل اليقينيات من جديد، إلا أن ما يزيد عمق الأزمة المعاصرة هو العمل و بقصدية على استلاب الإنسان الثقـــافي و محاولة محو أي اختلاف فكري و تفرد ذاتي و تمايز للهوية عن طريق سلطة العنف و القمع الحضاريين.

و لكن مشكلة هويتنا الثقافية ليست في اكتساح العولمة والأمركة للعالم العربي بل في العجز عن : « إعادة ابتكارها وتشكيلها في سياق الأحداث والمجريات أو في ظل الفتوحات التقنية والتحولات التاريخية، أي عجزهم عن عولمة هويتهم و أعلمـــة اجتماعهم وحوسبة اقتصادهم وعقلنة سيادتهم وكوننة فكرهم ومعارفهم ».[7]

لذلك يجب التعامل مع ثقافة العولمة من منظور عقلاني نقدي، وهـــذا يتطلب النظر للولايات المتحدة الأمريكية لا على أنها كتلة متكاملة من الشر أو الغطرسة السياسية، بل يجب التمييز بين ما يصدر عنهـــا مـــن أفعـــال و ممارسات سياسية، وبين دراسة العوامل التي ساهمت في بروز هذا المجتمع الهجين خلال فترة وجيزة و تسيّده العالم و قيادته علميًا وثقافيا. فهناك مـــن الأمور : « ما يمكن أن يصلح لنا و يطور أساليب الحيـــاة و الإنتـــاج فـــي مجتمعنا، والمطلوب الأخذ بها و تطبيقها على واقعنا ... وفي المقابل، يـــتم البحث في موضوع الهوية العربية والمحلية بشكل نقدي و جريء ليستوعب

---

[6] محمد صفوت قابل، "العولمة الثقافية تحصر الإنسانية في تاريخ الغرب الحديث"، المعرفة، عدد 129، ذو الحجة 1426/ 2004، ص 12.

[7] محمد حسين أبو العلا، ديكتاتورية العولمة، قراءة تحليلية في فكر المثقف، القاهرة : مكتبة مدبولي، ط1، 2004 ، ص 157.

التغييرات التي تحدث في مجتمعاتنا و العمل على المحافظة علـــى الأوجـــه الإنسانية و الحضارية في هويتنا وثقافتنا ».[8]

إن مهمة العرب في عصر العولمة ليس مجافاتها أو الانكفاء عنها، بما تعنيه العزلة من موت بطيء على كل المستويات، و إنما إعداد أوضاعها العامة و تأهيلها و توفير الآليات و الوسائل اللازمة للدخول إليها.

فالمطلوب منا كعرب عدم تمجيد العولمة بل نقدها و الكشف عـــن خباياهـــا، كفرصة تاريخية أو حقيقة واقعية، لأن منطق الفكر العربـــي الـــرافض للعولمـــة و المشكك في أهدافها و المتوجس منها يمثل ذروة أزمته في التعـــاطي مـــع حقـــائق و إحداثيات التطور.

2- المثقف والعولمة:

إن تهاوي المثقف العربي المحايث لتآكل أوضاع بلادنا ينتج الشخصية العربية ذات ملامح العبودية، و ها هو الاستسلام النابع من الفساد و الإفساد و أسر الشـــعوب و اعتقالها في سجون أنظمة الإستبداد، يمنع إعادة صياغة و تأهيل المثقف ليمـــارس دوره في الصراع الذي لا يهدأ من أجل أن يُبين الضوء في آخر النفق، كي لا نتـــوه عن مهمتنا الشائكة و المركبة، في عصر يشهد تحولات على شكل قفزات، و نحـــن نحيا في سبات عميق. فلا يجوز أن نحتفظ بالرفض السلبي لمنجزات الحضارة و نحن أحوج الناس إليها، فلقد أثبتت الحداثة مقدرتها على الإنتاج.

فأزمة المجتمع العربي : « ليست سوى تعبير دقيق عن أزمة المثقفين العرب الذين لم ينجحوا بعد في التصدي لما يعانيه المجتمع العربي من تحديات و أخطـــار ».[9]

فالمناخ الثقافي العربي بحاجة إلى نمط المثقف الكوني الذي ينتج نظرية ثقافية نقدية تمتلك أدوات التوجه القومي و تَعتبر منظومة المتغيـــرات المعلوماتيـــة إحـــدى دعائمها ومرتكزاتها ويكون هو المثقف المنفتح على سرديات تاريخه فـــي مراحلـــه المختلفة، و أيضا هو الواعي بخريطة الفكر العالمي بتياراته. و المستقصـــي لتـــاريخ الحضارات و الذي لا يتقبل أنّ العولمة تمثل انقلابًا معياريا في حركة التاريخ بقدر ما

---

[8] انمار لطيف و نصيف جاسم، العالمية الجديدة – المرجعية، الأهداف الوسائل، بيروت : المكتبة الثقافية، ط1، 2002، ص 63.

[9] محمد حسين أبو العلا، مرجع سبق ذكره ، ص 108.

تعد تحول تاريخي و حضاري، يطرح فرصا نسبية و غيــر متكافئــة أمــام الــدول والحضارات كلا حسب طاقاته و إمكانياته المادية و الذاتية.

فالمثقف فاعل فكري، بمعنى أنه يسهم في تغيير العالم بخلقه عالما للفكــر، و يقلب الأولويات بقدر ما يجترح منهجا للتفكير و يغير واقع السياسات بقدر ما يبتــدع ممارسة فكرية جديدة.

على المثقف العربي في سياق العولمة أن يكون فاعلاً ايجابيا و مبــدعا فــي إنضاج الوعي العربي بأهمية الهوية الثقافية المتمايزة و المتجددة كأســاس مركــزي للتفاعل مع العولمة.

تتطلب المهام المستقبلية وعيا بالذات الثقافية و بالآخر الثقافي، و هذا الــوعي يتوقف على وعي الذات المثقفة بنفسها على مستوى الإمكانات و الإنجازات و علــى مستوى النقائص والإخفاقات في الماضي القريب و الحاضر. و يعد الــوعي بالــذات ضروريا لاستشراف المستقبل المرغوب فيه للمجتمع العربي، و أيضــا لإستشــراف أبعاد مهام الدور المستقبلي المرغوب فيه للمثقف العربي. الذي يتحقق بالضرورة في التفاعلات الجدلية التي تثري كل من المستويين و تجعله ممكنا.

و يعتقد "عبد الباسط عبد المعطي" أن أدوات تحقيق هذا الهدف هي : [10]

- جهاد المثقف من أجل التعلم الذاتي.
- تطوير قدراته المعرفية و المنهجية للمساهمة في إنتاج المعلومــات الثقافيــة و تصنيفها و جعلها قادرة على التوظيف و المنافسة.
- تعميق القيم الضرورية للتفاعل الإيجابي مع العولمة و هي تتطلب نقلة كيفية في الخصائص والممارسات السلبية.

وعلى ذلك فالمثقف في لحظته التاريخية يجب أن تكون لــه قــدرة ووعــي بضرورة الإهتمام بنقد الذات، و ليس الإكتفاء بنقد الآخر، إضافة إلى التحــرر مــن المسلمات الجاهزة بتنمية القدرة على التأمل و الخيال و الإبداع للتجدد، تجاوز السلفية و القبلية في التفاعل إلى العلمية و المرونة وإدراك ضرورة التعددية و فاعلية الآخر، و تعميق قيم تحرير العقل و الإرادة الإنسانيين من حيث هما شــرطان ضــروريان لتوفير سياق الإبداع.

---

[10] عبد الباسط عبد المعطي، العولمة و التحولات المجتمعية في الوطن العربي، القاهرة : مكتبة مدبولي، 1999، ص ص -51 50.

إذن على المثقف أولا : أن يكون له وعي بالعولمـــة، وهـــو وعـــي يتطلب التمييزبين الموضوعي في التطور الإنساني، أو ما يمكن التعبير عنه بالكوكبية، وبين التوظيف الذاتي المـــرتبط بتـــدويل إنجـــازات الكوكبيـــة و توظيفها للهيمنة و التنميط الإنساني أو ما يمكن تسميته بالعولمة، مـــن ثـــم فالمهم تعيين الشروط الموضوعية العامة فـــي العقـــل والإرادة الإنســـانية، والنوعية المرتبطة بنظم السياسة.

ثانيا : تطوير الوعي الذاتي : و هو وعي يتطلب منه نقدًا موضوعيا لحصاد تكوينه و مضمون هذا التكوين و ممارسته في الماضي القريب و في الحاضر لتحديد الإمكانات القائمة التي تتضمن التفاعل الإيجابي مع العولمة، و أيضا تحديد عوائق هذه الحركة سواء كانت ذاتيـــة تـــرتبط بـــالمثقف أو موضوعية ترتبط بسياق مجتمعه.

حيث لا بد أن يكون لنا : « موقف إيجابي إزاء العولمة مما يتطلـــب منا أن ننخرط في المعترك الثقافي العالمي، وأن ندفع بمجتمعاتنا في اتجـــاه التفاعل المتحرك مع المتغيرات المتسارعة، حتى نفهم ما يجري حولنـــا، و نستوعب التحولات الكبرى التي تعيشها الإنسانية فـــي هـــذا العصـــر، وإلاّ سنبقى عاجزين نتفرج على العالم يتطور ... ».[11]

---

[11] محمد صفوت قابل، مرجع سبق ذكره، ص 13.

الخاتمة:

لكي تأخذ ثقافتنا مكانتها ضمن هذه العولمة علينا أن نحسن تقــديمها، و قبــل ذلك نعتني بها عن طريق الإهتمام بقطاع التربية و التعلــيم، و أن نهــتم بتــوفير "الذاكرة الأدبية و الذاكرة التاريخية. و الاستفادة من التقنية المعاصــرة، لأنهــا ملــك عالمي.

ومن هنا وحتى نتجنب الوقوع في العولمة العلمية، وما يتبعها، لا بــد لنا على مستوى الوطن العربي : « أن نعيــد النظــر فــي هياكــل جامعاتنــا وبقياداتها وإداراتها وكوادرها وفلسفاتها ومن ثم الانطلاق للنهــوض بتــوفير التسهيلات اللازمة والأجهزة والتقنيات المختلفة لاستغلالها فكريًــا ونظريــا وعمليًا لنكون فاعلين في نطاق العولمة وليس متفرجين لا حول لنــا ولا قــوة »[12].

إن وضع جامعاتنا و مراكز بحوثنا في المنطقة العربية عمومًا يتطلــب مــن العلمــاء والباحثين وأساتذة الجامعات والطلبة جهدًا مميزًا للإستفادة بالحد الأقصى مــن عولمــة العلــوم والمعلومات ومصادرها، وبغير هذا فإن الهوة سوف تزداد بــين مــن يملــك ناصــية العلــوم والتكنولوجيا والمعلومات و من لا يمتلكها. و يتطلب هذا أيضا إدراك المنظومة القيمية المتعلقــة بحسن إدارة الوقت و استثماره و تعظيم الاستفادة منه، و حيث « إن العولمة شملت وسائل نقــل الأفكار المتعلقة بسلوك الإنسان من ضمن منظومة معلوماتية فلم يعد هناك مجــال للإنغــلاق أو العزلة العلمية أو الحضارية لمفهومها الواسع، فالأفكار تنتقل و تقتحم و تتجــاوز الحــدود المادية منها والمعنوية و لذلك فالعزلة قد تكاد تكون مستحيلة ... »[13].

لكي نتجاوز و نتحرر و نتقدم علينا أن نعي حقائق واقعنا و نسعى لتوحيــده احترام الاختلاف وتنوع خصائصه و ملابساته، دون أن ننغلق على هويتنا. فهويتنــا "ليست كينونة جاهزة مكتملة بل هي صيرورة متصلة و مشروع مفتوح دائما علــى الجديد و المستقبل".[14]

---

[12] عادل محمد محاسنة، "العولمة في التعليم العالي و البحث العلمي"، التربية، السنة 32، عدد 144، مارس 2003، ص 278.

[13] خالد أبوقحوص ،"بعض الإتجاهات العالمية للتعليم العالي في ظل العولمة"، التربية، البحرين، عدد 8، أفريل 2002،ص34.

[14] محمود أمين العلم، مرجع سبق ذكره ،ص 50.

قائمة المراجع:

1-أبو العلا (محمد حسين) ، ديكتاتورية العولمة، قراءة تحليلية في فكر المثقف، القاهرة : مكتبة مدبولي، ط1، 2004.

2- أبوقحوص (خالد) ،"بعض الإتجاهات العالمية للتعليم العالي في ظل العولمة"، التربية، البحرين، عدد 8 ، أفريل 2002.

3- الجسمي (عبد الله) ، "الهوية و ثقافة العولمة"، العربي، عدد 560، 1 يوليو 2005.

4-العالم (محمود أمين) ، الفكر العربي بين الخصوصية و الكونية، القاهرة: دار المستقبل العربي، ط1، 1996.

5-انمار (لطيف) و نصيف (جاسم) ، العالمية الجديدة – المرجعية، الأهـداف الوسـائل، بيروت : المكتبة الثقافية، ط1، 2002.

6-حجازي (أحمد مجدي) ، "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية "، عالم الفكر، مجلـد 28 ، عدد 2، أكتوبر-ديسمبر 1999.

7-عبد الباسط (عبد المعطي)، العولمة و التحولات المجتمعية في الوطن العربي، القاهرة : مكتبة مدبولي، 1999.

8-عبد الرحمن عواطف،"كلمات إفتتاح"، في:الإعلام والثقافة والهوية في الوطن العربـي، القاهرة: مركز البحوث العربية، 2003،ص 12 .

9-قابل (محمد صفوت) ، "العولمة الثقافية تحصر الإنسانية في تاريخ الغـرب الحـديث"، المعرفة، عدد 129، ذو الحجة 1426/ 2004.

10-محاسنة (عادل محمد) ، "العولمة في التعليم العالي و البحث العلمـي"، التربيـة، السـنة 32، عدد 144، مارس 2003.

11-نجاح (كاظم) ، العرب و عصر العولمة، بيروت : توزيع المركز الثقافي العربـي، ط1، 2002.